الموالى فى العصر الأموى

تأليف الأستاذ محمد الطيب النجار

بقلم الدكتور محمد يوسف موسى

كنت دائماً أرى أنه من الخير أن نتبين من فهمنا للتاريخ عامة والإسلامى خاصة ، ومن الغاية التى ندرسه من أجلها ، ومن المنهاج الذى نصطنعه فى دراسته . فقد اعتاد الباحثون فى التاريخ العناية التامة بالأحداث السياسية فى كل تفاصيلها ، ولكنهم يهملون تماماً أو يكادون التاريخ للنواحى الاجتماعية والفكرية ونحو ذلك من مقومات الحضارة الإسلامية ، هذه النواحى التى توفر على دراستها واستخراج النتائج والعبر منها نفر من أفاضل المستشرقين .

كنت دائماً إذاً أنقد طريقتنا فى دراسة تاريخنا الإسلامى ، وأدعو إلى الأخذ بطريقة أخرى تكون غايتها الأولى دراسة الحضارة الإسلامية ؛ بمعنى ألا نسرف فى العناية بالناحية السياسية ، هذه الناحية التى لا يجب أن يكون القصد من دراستها إلا بالقدر الذى يتيح لنا أن نفهم تماماً ما كان من تطور فى نواحى الاجتماع والفكر وما يتصل بذلك من ألوان الحضارة .

من أجل ذلك أرانى مسروراً حقاً إذ أقدم لقراء « الرسالة » كتاب «الموالى فى العصر الأموى» لمؤلفه الفاضل الأستاذ الشيخ محمد الطيب النجار أحد أساتذة التاريخ الإسلامى بالأزهر ، والحائز لدرجة الأستاذية فى التاريخ . إن هذا الكتاب ، فى الغاية التى قصدها المؤلف ، وفى المنهاج الذى سار عليه ، يحقق ما كنت أرى أن يكون فى دراسة التاريخ الإسلامى .

بحث الأستاذ — وقد أخذ نفسه حقاً بالجدية التامة إزاء صراع الأحزاب والمذاهب ، وبأن يكون غرضه البحث عن الحقيقة وحدها — فى الفصل الأول من الكتاب نشأة الرق فى الإسلام والعصبية العربية التى تحولت فيما بعد إلى عصبية إسلامية ، وحالة الموالى الاجتماعية قبل العصر الأموى . وفى الفصل الثانى توفر فى بحثه على تصوير حالة الموالى فى العصر الأموى ، هذا العصر الذى كان يموج بالعصبية موجاً حتى كان نافع بن جبير بن مطعم إذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ فإن قالوا قرشى قال وا قوماه ! وإذا قالوا عربى قال وا بلوتاه ! وإذا قالوا مولى قال هذا مال الله يأخذ مايشاء ويدع مايشاء » ! ص٣٥ .

وفى الفصلين الثالث والرابع تناول بالبحث سياسة الدولة الأموية نحو الموالى ، وكيف وجد الأمويون أنفسهم فى هذه المشكلة بين تيارين عنيفين : الإسلام وما يدعو إليه من عدالة عامة ومساواة بين الأجناس ، والعصبية الجنسية العربية الحادة التى لم تقبل هوادة إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز . وانتهى البحث بالإشارة إلى أن الموالى لم يجدوا لأنفسهم فرجاً إلا فى التوفر على العلم والسيطرة على الحركة الفكرية فكان لهم من الرفعة من هذا السبيل عوض ما فاتهم بسبب التعصب عليهم من الدولة والأفراد ؛ ثم مقاومة تيار العصبية العربية بتيار آخر قوى هو تيار الشعوبية ؛ وأخيراً مؤازرة الحركات الثورية ، التى انتهت بزوال الدولة الأموية ، وذلك لكى ينتقموا لأنفسهم ، وتكون دولة جديدة يكون لهم فيها مركز السيادة والقيادة .

هذه الوسائل الثلاث ، التى حاولوا بها استرجاع مجدهم الذى قضى عليه الإسلام ، هى موضوعات الفصول الأخيرة من الكتاب . وبعدها كانت خاتمة ونتيجة للبحث كله ، ثم بحث خاص بالرق والولاء فى الإسلام لصلة هاتين المسألتين بموضوع البحث العام الأصيل .

هذا هو موضوع الكتاب الذى نقدمه الآن للقراء ؛ وقد رجع المؤلف فى بحثه إلى أمهات المراجع الأصيلة العربية والأجنبية ، وسار فى معالجته على نور وبصيرة وفى أسلوب علمى واضح ؛ وإن كان النقد الدقيق يجد فى لغته وأسلوبه أيضاً بعض الهنات .

وهنا أجهر مرة أخرى بكل قوة بضرورة أن يخرج الأزهر من بقية الجمود الذى يلابسه فيعنى عناية شديدة باللغات الغربية ، ويقرر دراسة بعضها دراسة جدية منذ أول مرحلة الدراسة الثانوية ، بحيث لا ينتهى الطالب من الدراسة العالية حتى يكون أجاد لغة واحدة على الأقل وألم بلغة أخرى . ذلك ضرورى وبديهى لطلاب الأزهر ، إذا أردنا أن يكون منهم علماء حقاً ، وإذا كنا حقاً جادين فى دراساتنا .

محمد يوسف موسى